أثر الاساطير

في قصة خروج بني اسرائيل

لناشر سبقين

لم يكشف الى الآن في الآثار شيء عن بني اسرائيل الا لوحة عليها اسم منفتاح ذكر فيها بعد الاشادة بانتصاراته على الليبيين انه استأصل شأفة بني اسرائيل . وقد استنبط بعض علماء الآثار من ذلك ان هذا الفرعون هو الذي طردهم لكن يذهب آخرون ان في هذه العبارة انما يقصد بها حرب انتصر فيها هذا الفرعون عليهم في بلادهم اي فلسطين ويخلصون من ذلك الى القول بان خروجهم كان قبل منفتاح بزمن طويل . ومن هؤلاء الاستاذ توماس روبنسون مدرس اللغات السامية بجامعة جنوب ويلز ومحرر الفصل الخاص بالخروج في دائرة المعارف البريطانية. فهو في رأيه ويشاركه فيه على قوله كثير من العلماء ان بني اسرائيل هم اما قوم «خابيرو» احد الشعوب السامية التي جاء ذكرها في الالواح التي عثر عليها في اطلال المدينة التي شيدها خوناتون (احنا تون) من ملوك الاسرة الثامنة عشرة المعروفة الآن باسم تل العمارنة واما القوم الرحّل الذين هاجموا فلسطين ابان اضمحلال هذه الاسرة . وبناء على هذا يكون الخروج حصل في اواسط حكم اي في زمن تحوتمس الثالث او قريباً منه . بيد انا اذا رجعنا الى سفر الخروج وهو أهم المراجع التي لدينا واوفاها عن هذا الحادث وجدنا ما يرجح خروجهم في زمن منفتاح فقد جاء في الاصحاح الثاني عشر « فارتحل بنو اسرائيل من رعمسيس » وفي الاصحاح الاول ما يدل على ان بني اسرائيل قد سخّروا في بناء هذه المدينة حيث قيل « فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلّلوهم باثقالهم فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم [1] ورعمسيس » وتسمية احدى المدينتين باسم رعمسيس شاهد على انها بنيت في زمن احد فراعنة الاسرة التاسعة عشرة الذين تسمّوا بهذا الاسم . والذي يؤخذ من الآثار ان الفرعون الذي كان يسخّر سكان الدلتا حيث كانت اقامة بني اسرائيل في بناء مدن مخازن هو رعمسيس الثاني وقد

---

(١) مكانها الآن الاطلال المعروفة باسم تل المسخوطة (التمثال) بمديرية الشرقية كما اثبته البروفسور نافيل بعد التنقيب فيها . سميت كذلك من وجود تمثال من حجر واحد هناك جالس بين الفين وتدل الكتابة التي فيه على ان هذا الملك هو رعمسيس الثاني . وهذه المدن كانت تعد لامداد الحاميات التي على الحدود بالقرب

اشار الى ذلك الاستاذ بدج في كتابه النيل . ويستفاد مما جاء في آخر الاصحاح الثاني انه مات قبل الخروج حيث قيل « وحدث في تلك الايام ان ملك مصر مات » ويدل السياق بعد ذلك على انهم اخرجوا في زمن خلفه . ونحن نعلم من سلسلة ملوك مصر ان خلف رعمسيس الثاني هو منفتاح

وتاريخ الاسرة التاسعة عشرة يؤيد هذا الاستنتاج فقد خلفت اسرة كان للساميين مكان غرب آسيا في زمنها نفوذ عظيم في مصر ، فجعلت سياستها على ما يقول الاستاذ بدج « مصر للمصريين » وأخذت على عاتقها تطهير البلاد من الاجانب الذين يمتون الى هذا الجنس لانهم كانوا ينحازون اليهم في كل حرب بين مصر وبينهم فكان بقاؤهم خطراً على البلاد لهذا السبب . ويفهم مما جاء في الاصحاح الاول من سفر الخروج ان هؤلاء الاجانب هم بنو اسرائيل حيث قيل « ثم قام ملك جديد على مصر فقال لشعبه هو ذا بنو اسرائيل شعب اعظم واكثر منا هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون اذا حدثت حرب انهم ينضمون الى اعدائنا »

والراجح ان بني اسرائيل وفدوا على مصر ابان حكم الهكسوس (الرعاة) ابتغاء الرزق في هذا البلد الطيب في ظل حكومة من ابناء جلدتهم فلما انتزعت الاسرة الثامنة عشرة الحكم من الهكسوس توجس بنو اسرائيل شراً من الملوك الوطنيين فاضعروا لهم العداء وماثروا عليهم الاعداء . فلما آل الامر الى منفتاح من ملوك الاسرة التاسعة عشرة وكان في حروب متواصلة مع الليبيين والاسيويين لم ير بداً من طردهم اتقاء لغدرهم وليأمن على سلطانه من دسائسهم . ولما لم يكن لهم وطن يسمون شطره ولا امة شقيقة توسع لهم من اكنافها خطروا رحالهم في برية سيناء وسرعان ما حنوا الى مصر وتاقوا الى خيراتها وتهافتت نفوسهم على معبوداتها واعيادها فانهم بعد شهر ونصف من طردهم على ما جاء في الاصحاح السادس والعشرين قالوا « ليتنا متنا في ارض مصر اذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع » وبعد ثلاثة شهور صنعوا تمثالاً وعيدوا له . وكان ذلك نذيراً للزعماء بان الشعب اذا لم تحسن سياسته فسوف يتساقط على الامم المجاورة ويغرق في غمراتها ويتبدد . فأطمعهم في ملك فلسطين بان ذكروا لهم انها وطن آبائهم الاولين وان الههم اخرجهم من مصر ليسكنهم تلك الارض التي تفيض عسلاً ولبناً تنشيطاً لقواهم المعنوية لعلهم ينتعشون الى الامل فيصبرون على ما هم فيه من شظف العيش . وسفر الخروج يصف باسهاب كيف ان الههم اخرجهم ليلاً بعد ما اهلك الابكار من الناس والبهائم

ومن عجيب ما يذكر في هذا المقام ان حادثة اهلاك الابكار التي يزعمون انها حدثت ليلة خروجهم تتفق مع احدى اساطير الاولين في موضوعها والآثار التي ترتبت عليها للذكرى ومتتضح هذه المطابقة من الموازنة بينهما

خلاصة قصة اهلاك الابكار ان الله الاسرائيليين غضب على المصريين لانهم اضطهدوهم وساموهم سوء العذاب فاهلك أبكارهم دون شعبه وطريقة ذلك على ما جاء في الاصحاح الحادي عشر من سفر الخروج «هكذا يقول الرب : اني نحو نصف الليل اخرج في وسط مصر فيموت كل بكر» ويوصيهم لكي ينجوا من الهلاك بان يتخذ كل بيت شاة فيذبحوه في العشية ويأخذوا من الدم ويجعلوه على القائمتين والعتبة العليا من البيوت التي يأكلونه فيها ليكون الدم علامة على بيوتهم فيراها الرب حين يضرب ارض مصر ويعبر عنها . ويؤخذ من الآية الثالثة والعشرين من الاصحاح الثاني عشر ان الهلاك منوط بمهلك يتبع الرب وهذا نصها «فان الرب يجتاز ليضرب المصريين حين يرى الدم على العتبة العليا والقائمتين يعبر الرب عن الباب ولا يدع المهلك يدخل بيوتكم ليضرب» وفي آخر الاصحاح «وكان في ذلك اليوم عينه ان الرب اخرج بني اسرائيل من ارض مصر»

اوصى بنو اسرائيل بعدة وصايا تذكاراً لهذا الحادث فاولاً : ان يجعلوا اليوم الذي نجوا فيه من الهلاك واخرجوا من مصر عيداً واليك ما جاء في الاصحاح الثاني عشر في هذا الصدد «ويكون لكم هذا اليوم تذكاراً فتعيدونه عيداً للرب» . وثانياً . ان يجعلوا الشهر الذي يقع فيه هذا اليوم اول شهور السنة وهذا الشهر على ما جاء في الاصحاح الثالث عشر هو ابيب بحسب التقويم المصري القديم حيث قيل «اليوم انتم خارجون في شهر ابيب» اما الوصية بجعله رأس الشهور فواردة في الاصحاح الثاني عشر وهي «هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور هو لكم اول شهور السنة» . ثالثاً : ان يعتبروا الذبيحة التي ذبحت ليلة اهلاك الابكار ليجعلوا من دمها علامة لخلاصهم فريضة تمارس في مثل تلك الليلة من كل سنة وتسمى الفصح . وهذه اللفظة محرفة عن بساح العبرية ومعناها اجتاز وعبر من قولهم ان المهلك اجتاز ارض مصر وعبر عن بيوتهم

اما الأسطورة المصرية وهي منقوشة على جدران احدى الغرف الجانبية بمقبرة سيتي الأول فتتلخص في ان المصريين تمردوا على الههم رع وخرجوا عن طاعته واهانوا اسمه فغضب عليهم وارسل هاتور لتهلكهم جزاء لهم بما كفروا فاجتازت أرض مصر وأثخنت في اهلها تقتيلاً واذا رأى رع من السماء ما حلّ بالناس اشتد النكبة واخذته بهم رحمة فأراد ان يخلصهم لكن كان يحول دون ذلك ان هاتور طيمت على حب الدماء حتى ليصعب ايقافها عند حد متى استثيرت لسفكها . فلجأ رع الى الحيلة لانقاذ رحمته وذلك بأنه دعا رسلاً وخاطبهم بقوله اذهبوا الى جزيرة الفيلة واجلبوا من هناك الثمار الجالبة للنوم ولتكن أوبتكم قبل الفجر فذهب الرسل كما أمروا بسرعة العاصفة الى الجزيرة حيث الجنادل الصخرية تعترض مجرى النهر العظيم وحملوا الى هليوبوليس مدينة رع الثمار المطلوبة من ذات اللون القرمزي

وذات اللون الأرجواني وهي التي تعطي عصيراً أحمر بلون الدم

وفي الوقت نفسه أمر رع نساء هليوبوليس فطحن الشعير وصنعة جعة ثم مزجها بعصير الثمار الجالبة للنوم فكان من ذلك شراب احمر كالدم . وقد بلغ ما صنعنه بعجلة في تلك الليلة قبل الفجر سبعة آلاف مكيال . ثم ذهب رع في بقائة كثيرة من الآلهة الى هليوبوليس لفحص الشراب ولما القاه شبيهاً جداً بالدم قال « سيكون هذا الشراب مخلص الانسان » ثم امر فأهريق الشراب عند الفجر قبل شروق الشمس في الحقول حيث وقعت المذبحة الى ارتفاع اربعة اشبار

وفي الصباح جاءت هاتور لاستئناف المذبحة ولما لم تجد خلقاً من اعداء رع لتبيدهم لفتت بمنة ويسرة فاذا الأرض مترعة بجثث اعدائه الذين احدرت فضحكت ابتهاجاً برؤيته ثم انحنت وولغت فيه بشراهة حتى ثقل رأسها بفعل المسكر ونامت واصبحت عاجزة عن استئناف المذبحة فنجت البقية الباقية من الناس من الهلاك

عندئذ ناداها رع وخاطبها بقوله « ستعمل لأجلك من الثمار الجالبة للنوم كلما جاء العيد الكبير عيد رأس السنة اشربة عدد الكاهنات اللاتي يخدمنني » وان هذا البرم كلما جاء عيد هاتور تجهز اشربة من الثمار الجالبة للنوم تذكاراً لخلاص جنس الانسان من غضب الآلهة

والمفهوم من السياق ان المراد بالثمار الجالبة للنوم التي يصنع منها شراب شبيه بالدم هو العنب وعلى هذا يكون اسلافنا اول من اتخذوا الخمر رمزاً للدم وشربوه لذكرى الخلاص

وانت ترى ان القصتين في جوهرهما متطابقتان في كليهما عصاة والله منتقم ينفذ من لدنه مهلكاً ليجري في الناس قضاءه وهو ذو رحمة يهلك فريقاً من الناس ويستحيي فريقاً بحيلة يوصي لنجاحها ان تتم بعجلة قبل الفجر . وفي كليهما اعتبر الشهر الذي حصل فيه الخلاص رأس الشهور واوصى ان يعمل فيه العيد كما اعتبرت الوسيلة التي حصل بها الخلاص فريضة تمارس في ذلك اليوم للذكرى

ومما يؤكد المرافقة بين القصتين علاوة على الأوجه التي ذكرت الحادثة الآتية وهي واردة في كل من الاسطورة وسفر الخروج في سياق وصف الضربات التي حاقت بالمصريين بسبب غضب الآله . فقد جاء في الأسطورة « ان النهر صار احمر وقد ظل يجري كذلك عدة ايام تباعاً . وكانت الارض مترعة بدم الناس وهاتور تخوض فيه وهي تجوب ارض مصر وتوغل فيها الى هين سيتن فاصطبغت قدماها باللون الاحمر » وهين سيتن بلدة مكانها الآن اهناسيا بمديرية بني سويف

وجاء في الأصحاح السابع من الخروج في الكلام عن احدى الضربات التي سبقت اهلاك الأبكار « فتحول الماء الذي في النهر دماً . . . . وكان الدم في كل ارض مصر »

ان ثبت مما تقدم ان قصة اهلاك الأبكار لا أسطورة انتقام رع يجردها من قيمتها التاريخية ويقضي من ثم على مزاعم بني اسرائيل عن الخروج التي يعلقونها عليها . وفي رأيي ان هذه القصة انما وضعت لتحويل عيد هاتور الى عيد قومي لبني اسرائيل بعد الذي ظهر من تعلقهم بهذا العيد وصاحبته . فقد قيل في الاصحاح التاسع عشر انهم في الشهر الثالث بعد طردهم نزلوا في برية سيناء وهناك بينما كان موسى يناجي ربه طلب الشعب من هرون ان يصنع تمثالاً فصاغه وقد قيل انه صنعه على صورة عجل بني مذبحاً وقال غداً عيد للرب فبكروا من الغد واصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة وجلسوا للأكل والشرب ثم قاموا للعب . اذ يلوح لي ان ذلك العيد الذي عيدوه كان عيد هاتور والذي يرجح عندي هذا الظن ان الشهر الذي صنع فيه التمثال وعيدوا وهو الثالث بعد أبيب الذي خرجوا فيه يوافق توت رأس الشهور المصرية الذي يقام فيه عيد هاتور . فان صح حدسي فيكون التمثال الذي صنعه هرون تمثال بقرة لا تمثال عجل لان البقرة هي رمز هاتور وكان يكنى بها عن العناية الربانية

وقد كان جديراً ببني اسرائيل احتفالهم بهذا العيد ليس فقط لانهم ألفوه في مصر وقد كان أكبر اعيادها حتى انهُ ما زال منهُ بقية في مصر الى ايامنا هي عيد شم النسيم (وسأفرد مقالاً لاثبات ذلك) بل لانهم كانوا في اشد الحاجة الى الرفق الى رمز العناية الربانية بما مسهم في الصحراء من الضر وتملكهم من اليأس . بيد ان هذا العمل قد اسخط زعماءهم فعملوا منذ ذلك الحين على قطع كل صلة لهم بمصر اولاً : بابعادهم عن آلهة المصريين لكنهم فيطنوا الى ان الظفرة في هذه الحالة ليست من الحكمة وان اصالة الرأي تقضي بمصانعة الشعب في دور الانتقال فاقتبسوا هذا العيد وادخلوه ضمن تقاليدهم وذلك بأنهم استبقوا المظاهر التي يتعلق بها الشعب ثم جعلوا للعيد مناسبة من تاريخهم لصبغه بصبغتهم القومية : وثانياً بتنفيرهم من مصر وذلك بما ألقوا في روعهم انها كانت بيت عبوديتهم وان فراعنتها قد أذلوهم وساموهم سوء العذاب وقد بالغوا في ذلك اشد المبالغة وجاوزوا الحد في الهجاء حتى اصبح لفظ فرعون وهو لقب ملوك مصر الاقدمين عنواناً على الطغيان والجبروت

* * *

والآن وقد ارتفع الغطاء عن هذا الحادث واستقر وجه الحقيقة فيه واتضح ان بني اسرائيل كانوا البادئين بالعدوان بحيث لم يكن لمصر مندوحة عن طردهم حرصاً على سلامتها فاني اطمع ان يقر الحق في نصابه تبرئة لمصر من وصمة الظلم التي وصمت بها في صدد هذا الحادث ، وانصافاً لتلك البلاد القديمة التي وضعت للعالم اسس الحضارة واعلت منار الحكمة وفتحت ابواباً للمعرفة كانت من قبل موصدة